

## الدراسات الحضاريّة والحواريّة المقارنة - من خطاب التأسيس إلى تحديات ما بعد الحداثة -

الدكتور رابح طبجون<sup>(١)</sup>

### بطاقة الكتاب:



تصنيف الكتاب: مقارنة الأديان.

اسم الكتاب: ماهية المسيح بين الإنجيل والقرآن.

اسم المؤلف: الأستاذ الدكتور عبد القادر بخوش.

بيانات النشر: الجزائر، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، ٢٠١٤م.

### مقدّمة:

يتأسّس الخطاب الحضاري والحواري المقارن على مجموعة من

(١) باحث وأكاديمي جامعي، من الجزائر.

الأنساق المعرفية التي خلصت إليها مفاهيم صراع الحضارات، والتي تجلّت في المبادئ الإستراتيجية للفكر الغربي الحديث.

لقد انفتحت الدراسات الدينيّة المقارنة، في ظلّ الصراع العالمي الجديد بعد الحرب الباردة، على أطروحات فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama في: «نهاية التاريخ» التي يرى فيها أنّ ما نشهده الآن ليس نهاية للحرب الباردة أو مرور فترة معيّنة لمرحلة ما بعد الحرب، وإنما نهاية للتاريخ، بوضع حدّ للأفكار والأيدولوجيات في التاريخ الإنسانيّ، وانتشار قيم الليبراليّة الغربيّة.

إضافة إلى الدعائم الفلسفيّة والفكريّة التي رسّخها صمويل هنتنغتون Samuel P. Huntington في كتابه «صراع الحضارات» التي يتوقّع فيها صراعاً مرتقباً بين الإسلام والغرب، خاصّة وأنّ «بعض المزايم بدأت تسرّب أفكاراً مغرضة، مفادها: إنّ مستقبل أسلمة أوروبا بات وشيكاً، في ظلّ انخفاض معدل المواليد، وزيادة عدد المهاجرين المسلمين. وهذا ما حدّث منه بابا الفاتيكان «بنديكت السادس عشر»، من انحسار الهوية المسيحيّة لأوروبا، وطالب في خطاب ألقاه بضرورة تأكيد الهوية المسيحيّة لأوروبا في العصر الحديث، بعدما عانت من هجر الطقوس الكنسيّة، وقلة المواليد، وثقافة تجاوزت السيطرة».

ومن خلال اضطلاع الدكتور عبد القادر بخوش رئيس قسم العقيدة ومقارنة الأديان بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة، في ترسيخ معالم هذا العلم في الجزائر، وفي منطقة المغرب العربيّ عامّة، وتوجيه البحوث والدراسات الجامعيّة لمقارنته بتأصيل مسألة الحوار بين الأديان على أساس علميّ رصين، يُمكن المهتمّين والمتابعين من تحديد أوجه الاتّفاق والاختلاف بين الأديان؛ حتى يكون التعارف والتعايش مبنياً على أساس معرفيّ يتخطّى النظرة السطحية التي جانبت الحقيقة، وأدّت إلى

سوء فهم وتأويل خاطئ، خيم على الدراسات اللاهوتية التي طبعت الفكر المسيحي والإسلامي.

### تقويم الكتاب:

إنّ السلسلة التي أطلقها الدكتور عبد القادر بخوش، من خلال «ماهية المسيح بين القرآن والإنجيل»، تسعى إلى إحياء التراث الإسلامي لعلم الملل والنحل، الذي لا يزال مغموراً أو متجاهلاً؛ بسبب نظرة التوجّس والحذر التي ينظر بها إليه لفيث من التيارات الفكرية المنغلقة في العالم الإسلامي، والمؤكّد أنّ عملية التّأصيل هذه لا ينبغي أن تتمّ من خلال مركزية متحيّزة ومعرفية متردّية في الانغلاق والجمود، بل من خلال الانفتاح والاستيعاب الواعي لمفاهيم الآخرين، وما يعزّز ذلك هو ما انفردت به الحضارة الإسلامية من تعايش أصحاب الملل والنحل المختلفة في كنفها رداً من الزمن يكاد يكون نادراً في تاريخ الإنسانية الطويل.

هذا وقد استطاع عبد القادر بخوش أن يعزّز الرؤية العربية العلمية للمشهد الثقافي والمجتمعي، وبذل جهوداً تأسيسية لسبر أغوار ذلك «الأخر»، وتأصيل مفهوماته، وقياس إيقاع حركته التاريخية؛ بما يتيح لنا مساحة من الوعي والحضور.

إنّ التطلع لمعرفة هذا المستوى المسؤول يتطلّب من الفكر الإسلامي المعاصر أن ينتقل من مرحلة الوعي بالذات إلى اكتشاف الذات وتقويمها، ومرحلة تشكيل إستراتيجية قوامها: إبراز مختلف العلوم الإسلامية وبعثها من جديد؛ وفق مفاهيم العصر، بعيداً عن الشوفينية أو ثقافة الكراهية. فالهدف الذي رسده الدكتور عبد القادر بخوش؛ وقد وصل إليه، هو تأصيل معرفة موضوعية لحقيقة المسيح؛ كما وردت في المصادر الأصلية للمسيحية والإسلام - الإنجيل والقرآن - في محاولة منه لتجاوز الآراء المتشجّعة أو المنحازة التي ألفت بظلالها إبان العصور التي تآجج

فيها الصراع بين المسيحيين والمسلمين، عبر فترات تاريخية متصلة ومنفصلة، هذا الذي كان له الأثر البالغ في توجيه المنظومة اللاهوتية وأسرها أصحابها في معترك الضغينة والأحقاد والعداوات المجانية، خاصة أنّ كثيراً من شعوب العالم بدأت تتخلّى عن تحيّزاتها النابعة من واقعها التاريخي والإنساني والوجودي، وبدأت تتبنّى التحيّزات الغربية، وفي الآونة الأخيرة بدأ كثير من العلماء العرب يشعرون أنّ المناهج التي يتم استخدامها في الوقت الحاضر في العلوم العربية الإنسانية ليست محايدة تماماً، بل ويرون أنّها تعبّر عن مجموعة من التحيّزات الكامنة المستترة في النماذج المعرفية، والوسائل والمناهج البحثية التي توجّه الباحث، دون أن يشعر بها، هذه التحيّزات هي التي تحدّد مجال الرؤية، ومسار البحث، بل وتقرّر كثيراً من النتائج.

فالأطروحات المسيحية الأكاديمية تؤكد هذا المنحى، فالدكتور هانس كونج؛ عميد كلية اللاهوت في ألمانيا، يرى أنّه إذا أراد أن يفهم أحدنا الآخر؛ فهماً صحيحاً؛ علينا إذن أن نعود إلى أصول دياناتنا، فالمسيح لم يعرف المصطلحات اللاهوتية المتداولة من قبل الكنيسة - التثليث، الصلب، الخلاص - ولا تعريفاتها، ولم يهتمّ بها، ولم يسأل أحد عنها، فقد كان يعبر عن عقيدته بأسلوب بسيط يفهمه الناس، ولم يجعل من نفسه قطب الرحى في الديانة المسيحية، فقد انكبّ على تبليغ ما أوحى إليه، والدعوة إلى تطبيقه؛ بعيداً عن النظر والتفلسف.

إنّ دراسة الآخر أصبحت اليوم مسألة حتمية؛ نظراً لتكبيبة الواقع في القرن الواحد والعشرين، وللتجاذب الشديد بين الدول والشعوب؛ من خلال وسائل الاتصال المختلفة، وحجم العلاقات العالمية المذهل، مع تسارع التغيرات الجذرية التي تحدث في العالم؛ سواء في بناء الأسرة أم رؤية العالم أم أسلوب الحياة وإيقاعها، مع ما يتطلّب بالضرورة أن

يعي الإنسان ذاته، وأن يعي الآخر. والوعي بالذات لا ينفصل عن الوعي بالآخر. فعملية التحديث الغربي قد بدأت -إذن- منذ حوالي خمسة قرون على الأقل، وبدأت بعض نتائجها السلبية تتضح، حيث يرى بعض المفكرين الغربيين أنه قد آن الأوان لإعادة التقويم والنقد.

وانطلاقاً من هذا يجدون أنّ حركة الاستنارة ليست ايجابية مئة بالمائة؛ إنّما لها جوانب مظلمة. ووجدوا أنّ فكر ما بعد الحداثة يقوم بتفكيك الإنسان، بحيث يتّجه نحو العام، وينكر أهميّة الخاص، ولأنّه يتّجه نحو العام، نجده يمجّد العقل، وينسى فكرة القيم الإنسانيّة، في محاولة منه لدحرها.

وعلى الرغم من التباس النظرية التي ابتدعها جاك دريدا Jack Dreda لتفكيك آليات الفكر الغربي، وفك الارتباط بينه وبين فكرة المقدّس والكهنوتي والراسخ منذ بداية الفكر الفلسفي الغربي؛ ولكنّه خلق جواً من الجدل، هيمن على الساحات الأكاديميّة في الربع الأخير من القرن العشرين، في محاولة منه لمواصلة مشروع هايدغر Martin Heidegger المتمثّل في «تفكيك الميتافيزيقا».

وأخيراً، نقول: إنّ الدكتور عبد القادر بخوش قد وظّف أدوات غنيّة جداً، من شأنها أن تفكّك مدارات الممارسة والتنظير لعلم مقارنة الأديان، وأن تقيم حواراً بين نصوص الديانات المختلفة، وموازنتها؛ بناءً على القواعد العلميّة والمنطقيّة، والتحقيق العلمي والتاريخي من جهة أخرى.

وعليه، فإنّ الحوار أضحى اليوم مطلوباً، في ظلّ المفاهيم المعاصرة، بعدما تحرّر الغرب من السيطرة الكنسية، وأصبح علماءه يستطيعون وضع المفاهيم الدينيّة الغربيّة على المحكّ؛ كما فعل المسلمون منذ مقاربات الغزالي، وابن رشد، ومن جاء بعدهما.